البلاغة والإشكاليات العقدية
(بين التأليف والتطبيق)

د. مسفر بن محمد الأسمري
أستاذ البلاغة المساعد -قسم اللغة العربية - كلية العلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد
المملكة العربية السعودية

البلاغة والإشكاليات العقدية
(بين التأليف والتطبيق)

د. مسفر بن محمد الأسمري
أستاذ البلاغة المساعد -قسم اللغة العربية - كلية العلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد
المملكة العربية السعودية

ملخص:

إن التوظيف الرئيس للبلاغة يقوم على الانتقال بالكلام من سياقه المباشر و دلالته التقليدية إلى سياق جمالي، مشبع بطاقة دلالية خاصة، تخرجه من مستوى الاستقرار إلى مستوى التحسن و التميز. و إذا كان قيام البلاغة العربية و وجهتها هو حسن التذوق لجمال لغة النص، ففي صدر ذلك أسماها لفظا و تعبيرا و نسقا و أسلوبا، و هما القرآن أولا و حديث النبي -ﷺ- متمما.

على الرغم من تبيان ذلك؛ فهناك من خرجوا عن ذلك لتصير البلاغة عندهم مطية يمتطونها؛ وصولا لمعان تتوافق مع معتقداتهم ومناهجهم، فشاعت عندهم عدة مخالفات عقدية في كتب البلاغة لها خطرها، و توجب التنبه لها. و الوقوف عليها موضعا و تحليلا، و هذه إشكالية البحث و مرومه عبر عدد من النقاط تمثل رؤية عامة للتصادم بين مقصد البلاغة السامي في مواجهة تطبيق ينافي ذلك. و جاء البحث في مقدمة و أربعة مباحث و خاتمة بالنتائج و التوصيات، أما المباحث الأربعة فهي على النحو الآتي:

- المبحث الأول: من هم أهل السنة، وما هو منهجهم في التعامل مع كتاب الله العزيز؟
- المبحث الثاني: من أوائل من كتب في هذا العلم؟
- المبحث الثالث: علماء البلاغة ومذاهبهم:
- المبحث الرابع: توظيف البلاغة لخدمة المعتقد

الكلمات المفتاحية: إشكالية، البلاغة؛ تأليف؛ تطبيق؛ عقيدة، مؤاءمة.

المقدمة

الحمد لله الذي وفقنا لطلب العلم، وهدانا لسبيل الرشاد، وجعلنا من أهل لغة الضاد، ويسر لنا بها فهم القرآن بعد ما عجز عنه كثير من العباد.

وبَعْدُ

فعلم البلاغة من آكد العلوم وأشرفها وأقربها ارتباطاً بكتاب الله-ﷻ- العزيز، امتازت به لغة العرب وصفا للسانها لشدة العناية به علما و فخرا. وشرف العلم يكون بشرف المعلوم، وحري بكل متخصص أن يرعوي له وينطوي عليه، ويغور مكامنه ويخرج أضغانه. و لما لا! و هو جمال اللغة و سموها عن المألوف و رفع باللفظ عن التقليد و ما هو معروف، غايتها لفت الذهن و التأثير، إذ "مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها." (١) و هي إشارة سابقة في الفكر العربي بعلاقة البلاغة بالخطاب الإقناعي و آلياته، و توظيف جماليات الأسلوب في جذب المتلقي أو التأثير في قناعاته. بل قد يكون الدرس البلاغي وسيلة خصبة و بساطا رحبا تبنى عليه بنية فكرية مقصودة.

ومن جانب مكمل فإن البلاغة في ميزان الكلام هي علم خصوصية اللفظ و تمام حقه. فقيل في البلاغة "هي بلوغُ المتكلمِ في تأدية المعاني حداً له اختصاصٍ بتوفيه خواص التراكيب حقها وإيراد أنواعِ التشابهِ والمجازِ والكنايةِ على وجهها." (٢) و كما هو بين جاء التركيز على أبين مناحيها و أخص ضروبها، و ما هو شائع نمطا و معروف مثلا.

وإن مما يحسن الوقوف عليه هو **"الإشكالات العقدية"** التي تخالط هذا العلم وتسبر غوره وتشق صفه وتخلخل منهجه، فكان من الواجب تحريرها والوقوف عليها وبيان أولها ومنشئها، ولعل هذه الورقات تتطرق لشيء من ذلك؛ حيث كانت مشكلة البحث تترتب في كون هذا العلم من العلوم التي نشأت بين جنبات كتاب الله العزيز، بل إن الغاية المقصودة منه هي إظهار بلاغته وبيان مكمن إعجازه، ولكن ظهر جلياً انحرافه عن طريقه واتجاهه نحو تحليل آيات الله-عز و جل- على غير وجهها الصحيح، وإيصالها إلى معان غير مقصودة، وليست على منهج أهل السنة و الجماعة، بل صارت البلاغة مطية يمتطيها المخالفون ليصلوا عن طريقها إلى معان تتوافق مع معتقداتهم ومناهجهم، و تخدم آراءهم و وجهاتهم المختلفة. وهذا ما أدى إلى شيوع عدد من المخالفات العقدية في كتب البلاغة التي بين يدي الباحثين بشكل عام و الطلاب المتخصصين بشكل خاص، وهذا مكمن الضرر. خاصة أن التغافل عنها طويلا يساعد في شيوعها من جانب، و ينزع عنها منحى الزيغ فيها، و تدخل في مطية السائد على خطئه، على الرغم مما تجره من مخاطر.

---

(١)المثل السائر لابن الأثير: تحقيق أحمد الحوفي،و بدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٩، ٢/ ٦٤.

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي، تحقيق أكرم عثمان يوسف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١، ص ٦٥٢.

والباحث في هذه الورقات يحاول الوقف على خطٍ فاصل بين قواعد العلم الأساسية التي قام عليها هذا العلم، وبين الطرق والأساليب التي اتخذها العلماء في الكتابة في هذا الفن، وبيان موطن الخلل الذي جعل البلاغة تخرج إلى مسار غير الذي تكون عليه في الأصل، ويمكن توزيع مفردات هذا البحث على النحو التالي:

- **المبحث الأول: من هم أهل السنة، وما هو منهجهم في التعامل مع كتاب الله العزيز؟**

مفصلاً القول في منهجهم في التعامل مع كتاب الله تعالى، وكيف كانت طريقتهم في تحليل الآيات وفق ما تعلموه من النبي صلى الله عليه وسلم، وماهي الأسس التي كانوا يقومون عليها، وكيف كان الرجل منهم يخاف من الخوض في كتاب الله حتى لا يقع في محظورٍ وهو لا يعلم، وهم من هم فضلاً وعلماً وتشريعاً؟

- **المبحث الثاني: من أوائل من كتب في هذا العلم؟**

محاولاً نفض غبار أصحاب العقائد الفاسدة عن بداية التأليف في هذا العلم، وبعدهم تمام البعد عن تأسيسه، وقد مثلت لذلك بعدد من الأقوال التي توضح بدء أهل السنة في التدوين وسبقهم لغيرهم.

- **المبحث الثالث: علماء البلاغة ومذاهبهم:**

وفيه بيان برؤوس العلم في البلاغة ومذهب كل عالم منهم، وقد اختصرت فيه على الأعلام دون المغمورين منهم، مع ذكر كتاب واحد لكل عالم منهم حسب شهرته وتداوله بين الباحثين، أو أنه عرف بهذا الكتاب دون غيره.

- **المبحث الرابع: توظيف البلاغة لخدمة المعتقد:**

وفيه بيان بأن البلاغة سليمة كل السلامة عن المشاكل العقدية، وإنما الإشكال في أهل المعتقد نفسه وما يؤولون إليه من تحريف وليٍّ للنصوص، مع بيان الإشكالات التي وقعوا فيها، وذكر عدد من الشواهد توضح رأي أهل السنة ورأي أهل البدعة في التعامل مع كتاب الله.

- **المبحث الأول: توطئة عن أهل السنة، ومنهجهم:**

منهج أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى قائم على أسس واضحة متينة قوية؛ ويمكن إجمالها على النحو التالي:

الأساس الأول: هو أن مصدر التلقي، سواء كان لأمور العقيدة، أو لأمور الشرع: هو الوحي، أي: ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذه القضية المسلمة تمثلت عند أهل السنة والجماعة بأمور ثلاثة:

الأمر الأول: هو وجوب التحاكم إليهما -أي إلى الكتاب والسنة- عند التنازع والاختلاف، يقول الله تبارك وتعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**} [النساء:٥٩]. قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ربكم فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإن في طاعتكم إياه لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه لأمر الله إياكم بطاعته. و عن عطاء " :أطيعوا الله وأطيعوا الرسول" ، قال: طاعة الرسول، اتباع الكتاب والسنة(٣).

ويقول تبارك وتعالى: {**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**} [النساء:٦٥]. أي يقسم –تعالى- بنفسه الكريمة المقدسة : أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا ؛ ولهذا قال) : ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (أي : إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.(٤) و هنا بيان بالإذعان و الرضا بكل ما كان له حق الطاعة في كل أمر محل خلاف و اختلاف.

إذًا: إلى من يُتَحاكم؟ يتحاكم إلى الكتاب والسنة، لا إلى رأي فلان، ولا إلى عقل فلان.

الأمر الثاني: أن هذا الدين كامل، إذًا: إذا كان هذا الدين كاملاً فمصدر التلقي: هو الكتاب والسنة، فالله تبارك وتعالى يقول: {**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ**} [المائدة:٣]. قيل : حلالكم وحرامكم، فلم ينزل بعد هذا حلال وحرام، و قيل: خبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه فلا ينقص أبدا، وقد رضيه فلا يسخطه أبدا(٥).

فكل من سار على بدعة، أو أراد أن ينهج نهجًا من مناهج الشرق أو الغرب، أو أراد أن يبدل حكم الله سبحانه وتعالى بأحكام البشر، فهو مخالف لهذه القضية المسلمة، وهي: أن دين الله كامل، والذي يقول بتلك المقالات زاعم بأن دين الله ناقص.

الأمر الثالث: هو أن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يتأدبون مع نصوص الكتاب والسنة حينما كانوا يبينون العقيدة، لأن العقيدة أمرها خطير، ومسائلها مهمة، قد تتعلق بالله تبارك وتعالى،

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ابن جرير الطبري، ٧/ ١٧٤-١٧٥

(٤) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، ٤/ ١٤١-١٤٢

(٥) الدر المنثور في التفسير بالماثور: جلال الدين السيوطي، ٥/ ١٨٠-١٨١.

وبأسمائه وصفاته وأخباره، وأحكامه وملائكته ومغيباته، ومن ثم فإن الإنسان إذا حكى العقيدة كما هو منهج السلف أن يلتزم بذلك الأدب مع هذه النصوص.

الأساس الثاني: هو بعدهم وعدم خوضهم في علم الكلام والفلسفة ونهيهم عن البدع في الدين، وتحذيرهم منها أشد التحذير، ولقد تواتر عن السلف رحمهم الله تعالى كلام طويل في هذا الباب، حتى إن الإمام الشافعي رحمه الله حكم على أهل البدع المخالفين للسنة: بأن المفروض فيهم أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في الأسواق، ويقال: "هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام"، وكلام السلف حول هذه المسألة طويل.

الأساس الثالث: هو أن أعلم الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه العقيدة هم الصحابة، ومن ثم فمن أصول عقيدة أهل السنة والجماعة اعتقاد أفضلية الصحابة كلهم، وعدالتهم وخيريتهم، وأن ثبوت الصحبة - فقط- لأي شخص من الأشخاص كافٍ في إثبات عدالته، وهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم هم أصحاب نبيه، بلغوا عنه، وهم أحسن الناس فهمًا، وتقوم هذه القضية وهذا الأساس من منهج أهل السنة والجماعة على بعض الأمور، منها. (٦)

و قد انعكست تلك الأسس على لغتهم و موقفهم من دلالة الألفاظ ، و في القضايا المختلفة التي يكون للفظ دلالته المباشرة التي لا حاجة لطيها بغية دلالة مغايرة، يستعمل فيها التأويل في غير محله. فالأمر بينٌ عندهم كما هو واضح في كتاب الله-ﷻ- بين ما هو محكم لا يحتاج إلى خروجه من دائرته، و بين ما يجوز تأويله وفق توافر ما يبيح ذلك و في مقدمة ذلك خصوصية اللفظ و خصوصية المنوط بالأمر. مع تحذير شديد في الانتقال من دائرة إلى أخرى بغية توجهات و أهداف خاصة، وصفها القرآن الكريم بالفتنة.

و ما أشده وصف القرآن و أدقه تعبيرا و تنبيها، خاصة عندما يتعلق الأمر بأمر له خطورته على مستوى الفرد و الجماعة كما جاء التعبير دقيقا في قوله-ﷻ-: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ). (٧) فمن حكمة الله -تعالى- أن جعل الأمر لا يسير عن نسق واحد في كل ما قضاه -تعالى- بيانا و اختبارا، فجمع بين موقفين على سبيل الاختبار لتلك النفوس التي صدقت في موقفها مع الله اتباعا و التزاما و تلك المهتزة التي لم تصدق صدقا تاما في موقفها مع ما أمر الله به.

و بناء على ما سبق بيانه جاءت آيات الله-عز و جل- و خطابه في كتابه منشطرة بين أمرين، أمر حاسم (محكم)، هو عمود و ركيزة للنفس المؤمنة في كل ما أمرها الحق به، و شطر آخر مرن في الفهم و الدلالة له حكمة في التوافق مع تغير الأحوال و الظروف (متشابهة)، و هو مطن الاختبار لتلك النفس. فالصادقة موقفها ثابت" و المترددة تمثل هؤلاء الذين" يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها ، لاحتمال لفظه لما

(٦) هذه المادة أخذت بتصرف من موقع الأستاذ الدكتور عبدالرحمن المحمود، أستاذ العقيدة بجامعة الإمام، وهي على الرابط التالي: http://iswy.co/e13hpd

(٧) سورة آل عمران: آية ٧

يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دامغ لهم وحجة عليهم ، ولهذا قال(ابتغاء الفتنة) أي : الإضلال لأتباعهم ، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهذا حجة عليهم لا لهم[٨] و الفتنة تتعدد صورها عند هؤلاء ما بين: الشرك، و اللبس، و الشبهات ، و إفساد ذات البين. [٩] و هي أشد الأمور خطرا على الفرد و على المجتمع؛ بل إن الاختلافات حول ما يتعدد تأويلا قد يدفع المجتمع المسلم الواحد إلى الاحتراب و التقاتل؛ كل يدعي الحق عنده، و هو أشد مآرب الخطر على أي أمة، حتى تلك الأمم التي اختصت بكتاب الله-عز و جل- لها، و ما أمرها فيه من التنبه لخطر اختلافها.

فإذا كان النص صريحا في قضية فهم المعنى و تقسيمه، فهو موجه عام للتنبيه على خطورة توجيه الدلالات و الألفاظ بغية أغراض خاصة. و نظيرذلك في مقامنا هنا – أيضا- البلاغة التي قد يستخدمها من يبغي خروجها عن حقيقتها فيقع فيما لا تحمد عقباه، فتكون المخالفات في يمس العقيدة دائرة مقتحمة عنده سواء أكان قاصدا أم عن غير وعي، و مرده في الوقوع في ذلك هو التجرأ على حقيقة اللفظ و أبعاده البلاغية.

- **المبحث الثاني: من أول من ألف في علم البلاغة؟**

علم البلاغة من العلوم العربية الأصيلة التي نشأت وترعرعت عند العرب وفي كلامهم، فمثلها مثل العلوم العربية الأخرى، فالنحو عرف من الكلام المنثور، والعروض عرف من الكلام المنظوم، والبلاغة عرفت من الكلام المنثور والمنظوم معاً. والأصل أن هذا العلم وضع لأجل معرفة إعجاز القرآن الكريم، وتمييز جيد الكلام من رديئه.

والحقيقة أن أكثر المتهمين لعلم البلاغة في عقيدته كان السبب عندهم –والله أعلم- هو ظنهم أن البلاغة لم تتأسس في أصلها إلا لخدمة بعض المعتقدات الفاسدة، والتأويلات المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة، وأنها لم تنشأ إلا منهم، وهذا ما جعلهم يشنون هذه الحملة الكبيرة على هذا العلم.

وإذا ما فتشنا الأقوال في نشأت هذا العلم وجدنا آراء عدة، فمنهم من يقول: نشأ في أحضان المفسرين وعلماء الإعجاز، وآخرون يرون أنه نشأ عند النقاد وأصحاب المدارس الشعرية، والحق أنه لا يختص بهؤلاء عن غيرهم؛ إذ هو نتاج مشترك بينهم.

ولعل ما أريد أن أصل إليه من هذه المقدمة هو: أن علم البلاغة متجذر في كلام العرب ومبتدؤه من علماء أهل السنة؛ إذ لا صحة لمن يتهمها بأنها نشأت عن المعتزلة وكان الغرض منها بثُ عقائدهم وتثبيت تأويلاتهم، ودونك التعليل لذلك:

- أول من كتب في أبواب البلاغة هو سيبويه (ت١٨٠هـ) وهو من علماء أهل السنة والجماعة، إذ تطرق في كتابه لمسائل علميّ المعاني والبيان **(كالتقديم والتأخير،**

(٨) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، ٣/ ٩

(٩) انظر: تفسير الماوردي، ١/ ٣٧١.

والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، ومعاني الحروف، ومعاني الاستفهام ...) وغيرها من فنون البلاغة الأخرى، وهو من أهل السنة والجماعة.

- تصريح عبد القاهر في كتابه الدلائل أن علم النحو بمعناه العام يشمل علم البلاغة، وذلك في عبارته المشهورة **"اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"**(١٠)

بل أشار إلى صورة بلاغة الكلام الحسن بعدم اقتصاره على شكلية البنية ، بل عرض أيضا تلميحات ترتبط بالصحة اللغوية و مظهرها الجمالي ، و ذلك عندما عرض مسائل " فساد النظم "بقوله : " وفى نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم " وعابوه من جهة سوء التأليف ، أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب ، وصنع فى تقديم أو تأخير ، أو حذف وإضمار أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ... (١١)

- نصَّ السكاكي في كتابه المفتاح على قوة العلاقة بين علمي البلاغة والنحو، وهذا جلياً في قوله **"وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان"**(١٢)

ومن هنا نفهم أن مؤسس علم النحو ومخترعه هو: (سيبويه) وسيبويه عالم من علماء السنة، و قد تطرق لعلم البلاغة في تأليف كتابه، ومن المقطوع به علينا أن كتابه هو أول كتاب وصلنا في علم العربية؛ فبهذا تنتفي شبهة **(أن البلاغة اخترعها أهل العقائد الفاسدة لتحقيق أهدافهم).**

إن نشأة علوم البلاغة العربية اقترنت بنشأة قواعد اللغة، لأن الحرص على الحفاظ على العربية شملت اللغة نظاما و أسلوبا و خصيصة. و إن لم تلق في حينها عناية النحاة، أصحاب السطوة و الحضور على الساحة في مطلع نشاة علوم العربية. و لعل ذلك يعود لطبيعة الحاجة إلى النحو مقارنة بالبلاغة. فالنحو لم تكن حاجته كشف لجمال ما هو واقع في لغة العرب كالبلاغة و علومها، بل هو كنانة الكلام و صونه من اللحن و الزيغ عن سليقة العربية. و دعما لحفظ كتاب الله (عز و جل)، و حصنا له من دخول اللحن عليه.

والآن بعد أن عرفنا منبعها ونشأتها، فالأصل الذي نفهمه هو: الارتباط القويم بين علميّ النحو و البلاغة فكل واحد منهما متمم للآخر و له على الآخر فضل و نفع؛ وبما أن النحو لم يؤلف من قبل المعتزلة فالبلاغة كذلك إذ هما صنوان واحد.

- **المبحث الثالث: علماء البلاغة ومذاهبهم:**

---

(١٠) دلائل الإعجاز، عبد القاهر، ص٨١

(١١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر، ص٨٤

(١٢) مفتاح العلوم، السكاكي، ص٣٧

عند تمعين النظر في علماء البلاغة وتدقيق الفحص في من كتب في هذا العلم الجليل - والذي كان من شأنه أن يهتم بكتاب الله وتحليله- نجد أن أغلبهم قد نحل فرقة معينة وذهب مذهباً مخالفاً لمذهب أهل السنة والجماعة، وليس الضيم هنا بل الضيم في أن هؤلاء من كبار علماء البلاغة وليسوا من المغمورين وإلا لهان الخطب وقلّ الضيم، وهنا خلاصة سريعة لأبرز هؤلاء العلماء ومذاهبهم.

وقد كان المنهج في هذا المبحث يقوم على ذكر العالم، وتأريخ وفاته، وكتابه الذي اشتهر به في هذا الفن، ثم ذكر معتقده بناءً على ما ورد عنه في كتب التراجم أو ما عرف عنه في تأليفه، أو في كتب العلماء الذين ردوا عليه في بعض المسائل.

أولاً: علماء أهل السنة:

- أبو عبيدة معمر بن المثنى: (ت٢١٠)، في كتابه مجاز القرآن لا يوجد ما يقدح في عقيدته، ولكن هناك نسبة غير دقيقة لمذهب الظاهرية.
- ابن قتيبه: (ت٢٧٦) في كتابه تأويل مشكل القرآن، وهو من أهل السنة.
- عبدالله بن المعتز: (ت٢٩٦) في كتابه البديع، وهو من أهل السنة.
- أبو سليمان الخطابي: (ت٣٨٨) في كتابه بيان إعجاز القرآن، وهو من أهل السنة والجماعة.

ثانياً: علماء المذاهب الأخرى:

- الجاحظ: (ت٢٥٥) وهو معتزلي صرح بذلك في غير موضع في كتابه البيان والتبيين.
- علي بن عيسى الرماني: (ت٣٨٤) في كتابه "النكت في إعجاز القرآن"، وهو معتزلي متشيع.
- الباقلاني: (ت٤٠٣) في كتابه "إعجاز القرآن"، وهو أشعري.
- ابن سنان الخفاجي: (ت٤٦٦)، في كتابه "سر الفصاحة"، وهو شيعي معتزلي.
- عبد القاهر الجرجاني: (ت٤٧١)، في كتابيه "دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة" فنجده متكلماً وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري، قال عنه محمد أبو موسى **"كان متمكناً في مذهبه الأشعري"**[١٣]

(١٣) مراجعات في أصول الدرس البلاغي، محمد أبو موسى ،ص١٤٢

وبما أن عبد القاهر من كبار المؤسسين للبلاغة العربية فلا غرو في أن يلحق به من بعهده من تلاميذه.

- الزمخشري: (ت٥٣٨) في كتابه "الكشاف"، معتزلي ومن أكثرهم خدمة لمعتقده.
- فخر الدين الرازي: (ت٦٠٦) وقد لخص كتابي عبد القاهر، وهو أشعري من كبار الأشاعرة.
- السكاكي: (ت٦٢٦)، في كتابه "المفتاح"، وهو معتزلي معلناً لذلك.
- أبو حازم القرطاجني: (ت٦٨٤) وهو معتزلي. يقول الصامل: **"ولم أجد في ترجمته ما يفصح عن معتقده، إلاّ أنّ سيطرة الاتجاه المنطقي والفلسفة اليونانية والتأثر بأرسطو يجعل منهجه أقرب إلى منهج العقليين من المعتزلة."**(١٤)
- القزويني: (ت٧٣٩)، في كتابه "الإيضاح"، وهو أشعري المذهب، "وإنك لترى أشعريته طافحة على كتابه"(١٥)
- يحيى بن حمزه العلوي: (ت٧٤٩) وهو يعتبر من أفضل من كتب في البلاغة بعد عبد القاهر وذلك في كتابه "الطراز"، وهو علوي شيعي معتزلي.
- وغير هؤلاء كثير مثل: الشيرازي، والتفتزاني، والشريف الجرجاني. (١٦)

بعد هذا العرض الموجز لعلماء هذا الفن، يظهر جلياً للقارئ الكريم أن أكثر من ألف في هذا العلم هم **" المعتزلة والأشاعرة "**، ثم يأتي بعد ذلك أهل السنة و الجماعة، وهذا ما يجعل الأمر أكثر تعقيداً؛ إذ لو افترضنا أن أهل المعتقد السليم هم أكثر طرقا من غيرهم في هذا الجانب لكان الأمر سهلاً و بينا و دليل حسم لما هو معقد؛ لكن بهذه الغلبة يجعل الأمر شبه متحتمٍ عند غير المتخصص بأن هذا العلم ضرره أكثر من نفعه، وهذا ما يهدف البحث إلى إجلائه بإذن الله.

- **المبحث الرابع: توظيف البلاغة لخدمة المعتقد:**

بعد الكلام الآنف ذكره في نشأة هذا العلم يجدر بنا أن نبين الخلاصة التي تهدف إليها المباحث السابقة، وهي: أن علم البلاغة استفاد منه أهل السنة والجماعة خير فائدة، فبه عرفت صور القرآن وتجلت بلاغته وظهر إعجازه وتميز عن غيره من الكتب الأخرى، وهذه الفائدة أتت أيضاً من أصحاب المذاهب المخالفة لأهل السنة والجماعة، وهذا دليلٌ حاجز على كل من يتهم البلاغة

(١٤) المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، الصامل، ط/٢، ١٤٢٦، ص٧٥

(١٥) البلاغة في ضوء مذهب السلف في الاعتقاد ،ص٣١

(١٦) البحث في مذاهب هؤلاء العلماء تركز على العودة لكتاب سير أعلام النبلاء، وكُتب تاريخ البلاغة، وكتب البلاغة التي تطرقت لمسائل العقيدة، ومذهب أهل السنة فيها.

في تنظيرها وتقعيدها إذ لو كان الاشكال فيه لما خُدم القرآن به هذه الخدمة الكبيرة والتي لا تخفى على كل أحد، وكما استفاد من ذلك علماؤنا فقد وظفه كذلك علماء آخرون في تمرير معتقداتهم ونشرها، وإليك مثالاً منهم:

الزمخشري مثلاً: فإنه كما يقول عنه ابن عاشور: **"كثيراً ما يرغم معاني القرآن على مسايرة مذهبه، فتنزو عصبيته، وتنزوي عبقريته"**(١٧).

ويتبع الزمخشري في هذا المنهج غيره من العلماء الأخرين إذ تراه يسعى جاهداً في لَيِّ عنق النص لخدمة مذهبه كما يحدث ذلك في تأويل أسماء الله وصفاته، وفي نفي القدر، وفي إخراج أفعال العباد من قدرة الله ومشيئته، ومن هنا قد يسقطون في مزلق أقوى مما يهربون منه، فالمعتزلة مثلاً يجعلون خالقاً مع الله في الكون -وإن كانوا لا يقولون بهذا- إلا أنه يظهر ذلك في تأويلاتهم.

ومن المسلم عندنا -أهل السنة- أن هناك أنواعاً بلاغية لا يمكن أن نمثل عليها بشواهد من كتاب الله العزيز؛ تنزيهاً لكلام الله تعالى، ومن ذلك مثلاً (الإعنات، و الهزل الذي يراد به الجد، وغيرها...) لكنه لا يمنعنا تعصبنا أيضاً من الاستشهاد بكتاب الله على بعض الأبواب الأخرى مثل: (المجاز) وهو الباب الأعظم الذي دخل معه المعتزلة؛ لموافقته لأصولهم وعقائدهم؛ فهم يصرفون الألفاظ عن ظاهرها القريب ويعطونها معانٍ أخرى بعيدة؛ ومع كل هذا فنحن لا نسوغ لأنفسنا إنكاره من اللغة والقرآن.

وهنا سؤال: هل أصحاب هذه المذاهب يخالفون القاعدة البلاغية؟ فنجيب بنعم، إذا خالفت مذهبهم أولوها بما يخدم المذهب، ودونك على سبيل المثال لا الحصر ما قام به الزمخشري في قاعدة تقديم المسند إليه المسبوق بالنفي على المسند، وذلك في قوله تعالى: "(.. وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)(١٨).

أولا: ما عليه أهل السنة والجماعة أن صاحب الكبيرة لا يخلد في النار.

ثانيا: يخالف أهل السنة و الجماعة ما عليه أهل الاعتزال، إذ مرتكب الكبيرة عندهم خالد مخلد في النار، وإذا نظرنا لهذه الآية نجدها تصطدم مع الزمخشري في عقيدته - أن صاحب الكبيرة خالد مخلد في النار- فنجده يهرب من التقديم –هنا- الذي كونه للحصر ويجعله للتقوية والتوكيد، وذلك لأن الحصر يجعلها **"وما هؤلاء خاصة بخارجين من النار"** فبهذا يكون صاحب الكبيرة خارجا من النار، والزمخشري هنا أولها على غير حقيقتها بل بما يوافق مذهبة.(١٩)

(١٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، م/٣، ص١٥٨

(١٨) البقرة:١٦٧.

(١٩) مدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، الصامل، ص١٢٨، بتصرف

ودونك مثالاً آخر يتضح فيه تأويلهم اللفظة القرآنية؛ للوصول إلى معتقدهم في: **" كون الإنسان هو من يخلق أفعاله"**، نجد أن المعتزلة عند تفسيرهم لقوله تعالى: **(**لِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**)**(٢٠)

فيجعلون هذه الآية من باب المبالغة في وضع العامة في موضع الخاصة؛ وهدفهم هنا هو القول بأن: العبد هو الذي يخلق أفعاله وهو المحدث لها، والله -عَزَّ وَجَلَّ- لم يخلق في الإنسان الشر، ولم يرد منه أن يفعل الشر، وإنما الإنسان هو الذي يخلق المعاصي ويخلق فعل نفسه، ويقولون: إن هذا تنـزيه لله سبحانه وتعالى، وهذا من توحيد الله، مع أن هذا هو الشرك؛ لأن إثبات خالقين ليس توحيداً وإنما هو الشرك بعينه. (٢١)

وما عليه أهل السنة والجماعة هو: أن الله - سبحانه وتعالى- هو خالق الإنسان، و خالق أفعاله، وأنه سبحانه وتعالى جعل للإنسان إرادة مخلوقة خلقها سبحانه وتعالى، ولذلك يحاسب ويجازي على نتيجتها. (٢٢)

ومما أوله المعتزلة والأشاعرة كذلك: الاستواء على العرش في قوله تعالى: **(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)**(٢٣) فقد ادَّعى بعض المعتزلة والجهمية ومتأخِّرو الأشاعرة أن معنى استوى: **"استولى"**، وحجَّتهم في هذا بيتان من الشعر:

- أحدهما قول الشاعر -وهو مجهول القائل-:

حتى استَوى بِشرٌ على العراق من غير سيفٍ ودمٍ مهراق

- والآخر أيضاً:

هما استويا بفضلهما جميعًا على عرش الملوك بغير زور

وهذا التأويل قد أنكره كبار علماء العربية؛ حيث يروي لنا داود بن عليٍّ أنه كان عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما معنى قوله تعالى: [**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**]؟ قال: هو على عرشه كما أخبر، فقال الرجل: ليس كذلك، إنما معناه: استولى، فقال: اسكُت، ما يدريك ما هذا؟! العرب لا تقول للرجل: استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضادّ، فأيهما غلبَ قيل: استولى، والله تعالى لا مضادَّ له، وهو على عرشه كما أخبر، ثم قال: الاستيلاء بعد المغالبة، قال النابغة(٢٤):

---

(٢٠) الأنعام: ١٠٢.

(٢١) ينظر هذا التأويل في: النكت في إعجاز القرآن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ١٠٤، وقد سبق في صفحات البحث الأولى القول بأن الرماني معتزلي متشيع.

(٢٢) شرح العقيدة الطحاوية: ١٧١.

(٢٣) طه: ٥.

(٢٤) ينظر: العلو للعلي الغفار للذهبي: ١٨٠-١٨١.

أَلا لمثلك أَو مَن أَنْت سابِقَه سبق الْجوادَ إِذا استَوْلى على الأمَدِ[٢٥]

ويقول ابن الجوزي: والبيتان لا يعرف قائلهما كذا قال ابن فارس اللغوي، ولو صحَّا فلا حجة فيهما؛ لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليًا. [٢٦] وبعد ذكر هذه الأمثلة، وإظهار الأقوال المختلفة في تأويلها، وبيان المنهج الصحيح في تفسير الآيات وفق معتقد أهل السنة، ليظهرُ جلياً لك أخي القارئ بأن الإشكالات العقدية التي تعرضت لها البلاغة العربية إنما هي بسبب جُرأة أهل المعتقدات الفاسدة على كتاب الله تعالى، ومحاولتهم توظيف الآي القرآني لخدمة توجههم ونصرة معتقدهم، و هو الجانب الذي يخرج من غاية البلاغة الحقيقية في كشف جماليات ما هو قائم دون الانجراف به إلى ما يغايره و يخالفه بغية دعم موقف ذاتي على حساب حقيقية النص و فحواه. وأن البلاغة تبرأ كل البراءة في قواعدها من التأويل والتحريف لكتاب الله، وإنما الجُرم على من امتطاها وأولها للوصول إلى مبتغاً غير الذي من أجله وضعت.

والخاتمة هنا:

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بفيض عطائه و عظيم فضله وكرمه ، حمداً يوافي نعمه و آلاءه، و صلاة على خاتم رسله و أنبيائه، محمد، صلى الله عليه و على آله و أصحابه.

أما بعد

فبعد هذه الوقفة الموجزة مع البلاغة والإشكالات العقدية التي قد تحملها توجيهات بعض مستعملي النموذج البلاغي قصدا موجها. و من ثم كان التعرض لهذه الإشكاليات قصدا لتنقية النموذج البلاغي و تفعيلا لوظيفته المقصودة في إظهارا جمال اللفظ و الأسلوب و ليس النزول به إلى رتبة الاختلاق و المواءمة لمآرب غير محمودة و مقاصد غير مرجوة. و من ثم كانت الملاحظات الآتية:

١. نشأة النموذج البلاغي نظاما و ضوابط تقاربت مع نشأة الدرس اللغوي مع فارق الاهتمام و العناية بسبب طبيعة المرحلة، إذ كانت الحاجة إلى الدرس النحوي ألح في خدمة كتاب الله، لاقتران الدرس النحوي بصون ما هو كائن و حفظه، قبل الانتقال إلى كشف جماليات ما هو كائن و واقع في كتاب الله و هو غاية الدرس البلاغي.
٢. أن البلاغة نشأت وعرفت في أحضان أهل السنة والجماعة، وكانت عبارة عن مصطلحات مبثوثة في كتبهم، ثم انطوى لها أصحاب المذاهب الأخرى وجعلوا منها باباً واسعاً لتحقيق أهدافهم وبث مذاهبهم، وليس الحق هنا أنهم بدأوا التأليف فيها بنية حسنة ثم انحرف الأمر في منتصف طريقهم -كما يذكر ذلك بعض الباحثين-، بل لم يكن التأليف فيها إلا لخدمة المعتقد من أوله، وقد صرح بذلك غير واحد منهم في كلامه، ولا شك هنا أن التطبيق هو الباب الأوسع لهم في التأويل والتحريف.

---

(٢٥) أشعر الشعراء الستة الجاهليين: ١٧٤.

(٢٦) زاد المسير في علم التفسير: ١٢٩/٢.

٣. ولعل ما يجدر التنبيه له أن هؤلاء المعتزلة وغيرهم قد خدموا البلاغة خدمة كبيرة، كما أنهم ألحقوا بها ضرراً كبيراً خاصة في ما يتعلق بكتاب الله تعالى، وهذا فاصل الأمر بيننا وبينهم.
٤. تعد قضية التأويل من أخطر قضايا التي يستند إليها من يوجه النصوص وفق فكري عقدي محدد.
٥. وضوح موقف أهل السنة و الجماعة و ثباتهم من القضيا العقدية، و عدم دخولهم في غياهب التأويل التي قد تمثل تعنتا في توجيه دلالة النصوص.

توصيات عامة:

إن العلاقة بين علوم العربية على اختلاف أنساقها بينة و قوية، بل إن المتتبع لتاريخ العلوم العربية يتبين له أن العلاقة بينها تشير إلى رابط و قسيم خاص، حيث خرجت من معين واحد وهو ما أفاضه القرآن الكريم من أسرار و فيوض في خصوصية البنية و المعاني و الدلالات، و من ثم فما واجب هذه العلوم المختلفة من نحو و بلاغة و أسلوب...إلخ تجاه الكتاب المبين سوى رد لما قد وهبته و ما استنبطته منه.

و بناء على ما سبق حقيق أن يقال إن ما تقدمه هذه العلوم لكتاب الله –عز و جل- مهما بلغ ليس إلا كشفا لجمال المنشأ و عظمة المنبع و هو كتاب الله نفسه، كما أن ذلك يشير إلى الحاجة إلى البحث في علاقات هذه المعارف و العلوم و ما تأثرت به من مؤثرات مختلفة، سواء ما حمل اتجاهات فكرية أو نزعات فلسفية أو توجهات عقدية. لردها إلى حقيقة مصدرها و هذه هذه المؤثرات أحدثت فيها انحرافا عن وجهتها و غايتها أم صبغتها بخصائص يمكن الإفادة منها، و بناء على ما سبق تظهر جدوى المقترحات الآتية، التي قد تكون لبنة لدراسات أخرى مستقبلية، و هي:

- الاهتمام بعلاقة أثر الفكر العقدي في توجيه الدرس النحوي
- تتبع تغيرات البلاغة العربية في ظل الفرق الإسلامية في مختلف العصور
- دراسة قضية التأويل و تأثرها بالتوجهات العقدية.
- دراسة المؤثرات الخارجية التي تأثرت بها العلوم العربية خاصة النحو و البلاغة

و في الختام هذا تصور موجز لهذه القضية، يحتاج استمرارا دون انقطاع في مواصلة سبر قضايا الدرس البلاغي و انعكاساتها في الأنساق المعرفية الأخرى.

و الله الموفق

- **مراجع البحث:**

- **القرآن الكريم.**

- **البلاغة في ضوء مذهب السلف في الاعتقاد،** عبدالمحسن العسكر. السجل العلمي لندوة: الدراسات البلاغية - الواقع والمأمول، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية اللغة العربية.

- **التحرير والتنوير،** محمد الطاهر ابن عاشورالدار التونسية للنشر و التوزيع ،و الدار الجماهرية للنشر و التوزيع ، بدون تاريخ .

- **تفسير القرآن العظيم،** لابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى السيد محمد و آخرين، القاهرة، مؤسسة قرطبة، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م.

- **التوجيه البلاغي لآيات العقيدة في المؤلفات البلاغية في القرنين السابع والثامن الهجريين** (ماجستير) - يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨م

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن،** للطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق و تعليق و شرح عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م.

- **شرح العقيدة الطحاوية**: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ) تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي)، الطبعة: الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ، دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ

- **المثل السائر لابن الأثير**: تحقيق أحمد الحوفي،و بدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٩.

- **المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة :** محمد بن علي الصامل ، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع – الطبعة ٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

- **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**: محمد أبو موسى. مكتبة وهبة للطباعة والنش، القاهرة، د.ت.

- **مفتاح العلوم،** يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق أكرم عثمان يوسف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١.

- **المنثور في التفسير المأثور،** للسيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م

- **النكت و العيون "تفسير الماوردي"**، الماوردي ،أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، مراجعة و تعليق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت

Rhetorical and Doctrinal Problems (Between Authorship and Application)

Dr. Mosfer bin Mohammed al-Asmari

Assistant Professor of Rhetoric - Department of Arabic Language - Faculty of Human Sciences - King Khalid University
Saudi Arabia

Abstract:

The main employment of rhetoric is based on moving from the context of direct and traditional significance to aesthetic context, saturated with a special semantic tag, graduating from the level of stability to the level of improvement and excellence. And if the establishment of Arabic rhetoric and its destination is a good taste of the beauty of the language of the text, and in the chest called it the word and expression and format and style, which are the Koran first and the Hadith of the Prophet -ρ- complement. In spite of this indicated; there are those who went out of it to become rhetoric have a ride on it; This is a problematic search and a number of points that represent a general view of the collision between the rhetoric of rhetoric in the face of an application contrary to that. The research contained an introduction, four chapters and a conclusion with conclusions and recommendations.

- **Keywords**: Problematic, Rhetoric; Authorship; Application; Doctrine, Alignment.

Scientific Publishing Unit - Faculty of Women for Arts, Science and Education
SPU @ FW 4 ASE
وحدة النشر العلمي - كلية البنات للآداب والعلوم والتربية